

ولالات الرثاء في شعر الجواهري

المدرس

نجاة علوان الكناني

جامعة البصرة - كلية التربية

ملخص البحث:

عبر الجواهري عن حزنه وأسأه لموت أقاربه وكان لطبيعة الميتة أثر بالغ في نفسه، فقد أجاد وأبدع في رثائه لزوجته وأخيه وأبن عمه فحملت مرثيته فيهم لواجح الحزن العميق .
تعد مرثيته لبعض القادة السياسيين سجلاً حافلاً بالأحداث السياسية والاجتماعية ، فضلاً عن بيانه لوجهة نظره السياسية من خلال شخصية المرثي .
لقد كان للجواهري الدور الفعال في بيان الأفكار والآراء التي تصدى لها الشعراء المرثيين ، مصوراً بذلك خسارة المجتمع لرحيل مثل هؤلاء المفكرين عنه .

Abstract:

Al-Jawahiri has expressed his sadness and sorrow to the death of his relatives. The nature of the death has a great impact on him. He is creative in the elegy of his wife, brother and cousin where he expresses deep sorrow. His elegy to some political officials is regarded as a remarkable record to political as well as social events. In addition he expresses his political attitude in these elegies. He plays a vital role in disclosing the ideas tackled by elegy poets showing the loss of the society to the death of those thinkers.

المقدمة:

عرف الإنسان الرثاء منذ بداية خلقه بعد أن مُني بفقد عزيز له ، فوقف متحيراً ومشدوهاً لهذا القضاء الألهي ، وقد عبر عنه في بداية امره بالبكاء والصراخ والعيول ، ولكنه بعد أن عرف الشعر وسهل عليه قرضه أخذ يعبر عن لوعته بمراثٍ دلت على شدة حزنه وأساه، محاولاً من خلالها التخفيف عما يجول في صدره من لوعة وحرقة شديدين ، فضلاً عن تعداد محاسن المرثي وفضائله والثناء على خصاله والتمجيد بأعماله.

إن الجواهري شاعر ذو عطاء كبير أمتد لمدة طويلة من الزمن ، عُرف بمواقفه الإنسانية ومشاركته الوجدانية لأبناء مجتمعه في معظم قضاياهم ولاسيما الاجتماعية والسياسية ، ولذا فعند موت أحد الشخصيات الاجتماعية أو السياسية أو الثقافية يرثيه بألفاظ مصوراً في ضوئها خسارة الأمة لفقد مثل تلك الشخصيات الفاعلة في المجتمع .

وإن غاية البحث هي بيان أثر الظروف الاجتماعية والسياسية على نفسية الشاعر، وكيف أدت به إلى تسجيلها في مرثيته فكانت تلك المرثي سجلاً حافلاً بأبرز الأحداث السياسية والاجتماعية آنذاك ، فضلاً عن بيان ما أمتاز به الجواهري من طاقة شعرية فذة وروح إنسانية عالية .

أما المنهج الذي اتخذته في دراستي هذه ، فهو المنهج التحليلي لبيان دلالات الرثاء لدى الشاعر ، ولهذا فقد قمت بتحليل بعض النصوص الشعرية لبيان مدى الحزن والأسى الذي تركه رحيل مَنْ رثاهم ، فضلاً عن تصوير الخسارة الكبرى لفقدهم .

لقد تناولت في البدء مفهوم الرثاء وأثر النشأة الأولى على اتجاهات الشاعر، ثم درست رثاءه لأقاربه وكيف كان لفقدهم الأثر العميق على نفسيته ، ثم رثاءه للقادة والوزراء السياسيين فضلاً عن رثائه للشهداء مبيناً من خلالهم سياسة الحكومات الظالمة ونضال الشعوب ضدها ، ورثائه لبعض الشعراء الذين كان لهم الدور الفعال في تقدم الأمة ، مؤيدة ذلك بالنصوص الشعرية التي صورت رثاءه الاجتماعي والسياسي والفكري .

مفهوم الرثاء:

يعرف الرثاء على انه البكاء على الميت وتعداد محاسنه (وَرَثَيْتَ الْمَيِّتَ رَثِيًّا وَرَثَاءً وَمَرَثَاءً وَمَرَثِيَّةً وَرَثِيَّتَهُ: مدحته بعد الموت وبكيتته . ورثوت الميِّتَ أيضاً إذا بكيتته وعدادت محاسنه ، وكذلك إذا نظمت فيه شعراً^(١)، وقال (أبو العباس عن ابن الأعرابي: رثت المرأة زوجها ترثيه وترثوه)^(٢)، (وقال الليث:

رثى فلان فلاناً يرثيه رثياً ومرثيةً ، إذا بكاه بعد موته ، قيل: رثاهُ يرثيه ترثيةً ، وامرأة رثاءة ، ورثاية ، إذا كانت تنوحُ نوحاً ونياحةً.^(٣)

ويستعمل الرائي الفاظاً تكون مرادفة للرتاء (فـ) هناك ألفاظ تستعمل في قصيدة الرثاء وتأتي في معانيها مرادفة للرتاء أو هي جزء من قصيدة الرثاء العربية ولكل لفظ من هذه الألفاظ دلالاته واختصاصه...^(٤)، وان هذه الألفاظ هي (التآبين والندب والنعي) والتي تقال في ظروف الحزن والبكاء ، إذ يبكي الرائي بحرقة وألم مبيناً حسنات المرثي ومدى الألم الذي تركه في قلوب محبيه ، راثياً من خلاله نفسه وقومه لكونهم فقدوا إنساناً يمتلك ميزات حسنة وأخلاق عالية .

إن التآبين يعني مدح الشخص بعد موته (وأبْنَ الرجل تآبيناً وأبَّله: مدحه بعد موته وبكاه) ، قال مُتَمِّم بن نُويرة:

لعمري ! وما دهري بتآبين هالكِ، ولا جزعاً مما أصاب فأوجعا

وقال ثعلب: هو إذا ذكرته بعد موته بخير، وقال مرة: هو إذا ذكرته بعد الموت. وقال شمر: التآبينُ الثناءُ على الرجل في الموت والحياة، قال ابن سيدة: وقد جاء في الشعر مدحاً للحَيِّ وهو قول الراعي:

فرفع أصحابي المطيِّ وأبئوا هُنيدةً، فاشتاقَ العيونُ اللوامحُ

قال: مدحها فاشتاقوا أن ينظروا إليها فأسرعوا السير إليها شوقاً منهم أن ينظروا منها...^(٥) ، ((ويبدو أن التآبين من ألفاظ التضاد لأنه يدل على المدح للحَيِّ والميت والذم والمدح للحَيِّ فقط...^(٦) ، وأن أصل التآبين هو مدح الشخص حياً أو ميتاً ثم أصبح بعد ذلك ملازماً للرتاء فأقتصر استعماله على الموتى فقط. ((والندبُ: أن تدعوَ الناديةَ الميت بحُسن الثناء في قولها: وأفلاناه ! واهناه ! واسم ذلك الفعل: النُدْبَةُ ، وهو من أبواب النحو، كلُّ شئٍ في ندائه وا ! فهو من باب النُدْبَةِ...^(٧) ، ولذلك ((فالندب هو ما عبر عنه الشاعر عما تكنه نفسه من مشاعر حزينة متألمة نحو قريب تربط به وشائج الدم ، أو صديق تصله به صداقة حميمة أو عبقرى يردى فيخلف لوعة عميقة في نفس الشاعر...^(٨) .

أما النعي فهو الأخبار بالموت ولذا يقال: ((النَّعْيُ: خبر الموت، وكذلك النَّعْيُ. قال ابن سيدة: والنَّعْيُ والنَّعْيُ بوزن فعيل، نداء الداعي وقيل: هو الدعاء بموت الميت والإشعارُ به، نَعَاه يَنْعَاهُ نَعِيًّا ونُعْيَانًا، بالضم. وجاء نَعْيُ فلان: وهو خبر موته، والناعي: الذي يأتي بخبر الموت...^(٩) ، ((وعن الفراء: النعي:

رفع الصوت بذكر الموت، وعن الأصمعي: كانت العرب إذا مات من له قدرٌ ركب راجب وجعل يسير في الناس يقول: نَعَاءَ فلاناً، ويقال: يائِعَاءَ العرب أي انعمهم .^(١٠)

ويعد ((الرثاء من ارتباطا بحياة الانسان لانه يدور حول الموت الذي هو نهاية حتمية لكل انسان فلذلك جاءت المرثية تحمل نظرة الانسان الى الموت وهي نظرة يشوبها الحزن الشديد على فراق الراحلين...))^(١١) ، إذن فالرثاء غرض شعري تزامن مع فجاعة الموت التي تذوقها كل نفس بشرية ، تلك الفجاعة التي تكون لرحيل عزيز أو فقد رجل عظيم ، فيأتي الشاعر بأبيات مبيناً من خلالها مدى الحزن والأسى الشديدين ، فضلاً عن تصوير الخسارة الكبرى التي حلت بهم نتيجة فقده .

الدلالات الاجتماعية:

إن الشاعر إنسان مرهف الإحساس يتألم لرحيل شخص عزيز عليه، فيبكيه راثياً له ومعبراً عن مأساة فقده بنغمة حزينة مؤلمة ، فيؤثر إحساس الشاعر و إنفعاله النفسي تأثيراً أساسياً في التعبير عن شدة حزنه ومشاركته الوجدانية لابناء مجتمعه ومواساتهم، وينقسم الرثاء على نحو عام على قسمين وهما الرثاء الخاص والرثاء العام، ويشمل الخاص المقربين للشاعر كالنفس والآباء والأبناء والأخوان والأخوات والزوجات والأزواج، أما العام فيشمل الأبعد كعلماء الدين واللغة والقادة والشعراء والأصدقاء، وهذه الأقسام يمكن أن تندرج ضمن الدلالات الاجتماعية والسياسية والفكرية للرثاء.

أ- رثاء النفس:

ينعى الشاعر نفسه عند زيادة ضغوط الحياة عليه فيتجه إلى التفكير في الموت، فالجواهري في إحدى رباعياته التي بعنوان (رثاء). يقول:^(١٢)

يا أيها القلبُ المضي	ءُ لبعثه تعب الجدود
نهشتك بالحرمان "دي	دان" الحواجز، والسدود
لم تبق شيئاً منك يشـ	بعُ منه تحت الثُربِ دود

فهنا يخاطب الشاعر قلبه ناعياً نفسه لياسه من الحياة وشعوره بقرب أجله راسماً صورة شعرية تبين معاناته من خلال مخاطبته لقلبه الذي نهشته الديدان ، وما هذه الصورة الا رمز منه لكل العقبات التي واجهته في حياته ولم تبق منه شيئاً يستطيع أن يستفيد منه الدود الذي سوف يأكل جسده بعد الممات ، ولذا

فإن ((أية حالة قهر أو شعور بالضيق أو الغربة تهئ للمرء استحضار هواجس الموت، وتحمله على بكاء ذاته، وإن كان عن الموت بعيداً بعض الشيء...))^(١٣).

ب- رثاء الأقارب:

لقد تجسدت في رثائه لأقاربه كل معاني الحزن والأسى بشكل يبين قدرة الشاعر وتمكنه اللغوي على خلق الصور الابداعية المعبرة عن حجم المأساة والمصورة لمعاناته النفسية الأليمة. ومن أوائل الذين فجع الشاعر بوفاتهم هي زوجته (أم فرات) التي رثاها بقصيدة طافحة بكل معاني الألم والمرارة الا وهي قصيدته (ناجيت قبرك) وقد ((نظمت والشاعر في بيروت في طريقه إلى المؤتمر الطبي العربي، مندوباً عن العراق وقد وصله خبر وفاة عقيلته المفاجئ، عن عارض مؤلم لم يمهلها سوى يومين فتخلّى عن الالتحاق بالمؤتمر وقفل راجعاً إلى بغداد وكان ذلك عام ١٩٣٩))^(١٤). وان هذه القصيدة قد رسمت صورة واضحة المعالم عن علاقة الشاعر بزوجته فهي علاقة انسجام ومحبة متبادلة بينهما فـ ((في ساعة وصول الشاعر الى العراق من بيروت ذهب الى النجف الأشرف فوقف على قبر زوجته ليناجيها حيث طافت به أشباح الذكريات وخيالاتها...))^(١٥)، وبدأ يُحياها ولأنها زوجة كريمة فلا بد أن تُكنى بأسم من تلد، ويطلب منها ان ترد عليه بروحها ولشدة وقع الحدث عليه فقد بكها بحرارة ولم ينفج معه الصبر فتفجر من جراء ذلك قلبه الصلب دمعاً غزيراً لم يعهد مثله من قبل حتى بكى عليه من لم يعرفه. فيقول:^(١٦)

حُييت "أم فرات" إن والـدة	بمثل ما انجبت تُكنى بما تلد
تحية لم اجد من بث لاجهـا	بُداً، وإن قام سداً بيننا للحد
بالروح رُدي عليها انها صـلة	بين المحبين ماذا ينفعُ الجسد
عزت دموعي لو لم تبعثي شجنأ	رجعت منه لحر الدمع أبترد
خلعتُ ثوب اصطبار كان يسـثرنـي	وبان كذبُ ادعائي أنني جلد
بكيتُ حتى بكا من ليس يعرفني	وُثحتُ حتى حكاني طائرُ غرد
كما تفجر عيناً ثرةً حـجـر	قاس تفجر دمعاً قلبي الصلد

ثم بعد ذلك يطلب من زوجته الفقيدة أن تمد إليه يدها ليصافحها فإن اتحادهما لا بد أن يتم في الحياة أو الممات فهما كشتين وافى أحدهما الموت والآخر لم يبيت في أمره بعد. فيقول:^(١٧)

مُدِّي إِلَي يَدًا تُمَدِّدُ إِلَيْكَ يَدُ
لأبْد فِي الْعَيْشِ أَوْ فِي الْمَوْتِ نَتَّحِدُ
كُنَّا كَشْفَيْنِ وَافِي وَاحِدًا قَدْرٌ
وَأَمْرٌ ثَانِيهِمَا مِنْ أَمْرِهِ صَدَدٌ

أما رثاؤه لأخيه فقد تجسد في قصيدته (أخي جعفر) التي ((ألقاها الشاعر مساء يوم ١٤ شباط ١٩٤٨ في الحفل الكبير الذي أقيم في جامع الحيدر خانة في بغداد، لمناسبة مرور سبعة أيام لاستشهاد أخيه محمد جعفر الجواهري وإخوانه الشهداء في معركة الجسر الباسلة يوم ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٨، ثورة على معاهدة "بور تسموث" وكان يوم تشييع جنازته يوماً لم تشهد بغداد مثله في تاريخها الحديث))^(١٨)، ولطبيعة الميثة التي ماتها الأخ وسببها وعمره وشخصيته أثر كبير على نفسية الشاعر، فالميثة الطبيعية لا تثير في نفسه لاجع الأسى والحزن الشديدين على أخيه المفقود، بينما تتأجج في داخله نار الحزن ولوعة الفراق عندما يكون قد مات مقتولاً وهو ما زال في ريعان الشباب، ف ((في مرثية الجواهري لأخيه جعفر نرى ان عاطفة الشاعر وإن لم تختلف كعاطفة انسانية الا اننا نلمس حرارتها أكثر في مرثيته لأهل بيته، فضلاً عن أصالة الأفكار وسعة الرؤيا والصور الشعرية بشكل يبرز ابداعية الشاعر واصلته الشعرية))^(١٩). فيقول:^(٢٠)

أَتَعْلَمُ أَمْ أَنْتَ لَا تَعْلَمُ
بَأَنْ جِرَاحَ الضَّحَايَا فَمُ
فَمُ لَيْسَ كَالْمَدْعِيِّ قَوْلُهُ
وَلَيْسَ كَأَخْرٍ يَسْتَرْحِمُ
يَصِيحُ عَلَى الْمَدْقَعِينَ الْجِيَاعِ
أَرِيْقُوا دِمَاعَكُمْ تُطْعَمُوا
وَيَهْتَفُ بِالنَّفْرِ الْمُهْطَعِينَ
أَهْنُوا لِنَامِكُمْ تُكْرَمُوا

والمرثية تصور حالة الحزن والجزع التي يعانيتها الشاعر نتيجة موت أخيه، وهو يستغل هذه المناسبة ليجولها إلى دعوة للثورة، وذلك من خلال أستعماله لأسلوب الأستفهام في تأبين أخيه الشهيد وهو يستنهض الهمم فيدعو الفقراء والنفر الذليل إلى التضحية والتخلص من الطغاة أصحاب المآثم والمال الحرام، ويحرض الشعب للانقضاض على السلطة، وان المصاب الجلل الذي حل بأهل الجواهري هو الذي سيطر على أنفعالات الشاعر وجعله يحرض الناس على الثورة والتخلص من الظلم.

وله قصيدة أخرى بعنوان (يا دجلة الخير) والتي جمع فيها بين أمه وأخيه فقد رثاها بألفاظ دلت على حزنه وألمه وكيف أن لموتها حرارة في صدره. فيقول في المقطع الأخير منها:^(٢١)

ويا ضجيعي كرى أعمى يلفهما
حسبي وحسبكما من فرقة وجوى
لف الحبيبين في مطمورة دون
بلاعج ضرم كالجمر يكويني
لم أعد أبواب ستين، وأحسبني
هماً وقفْتُ على أبواب تسعين

وهذا المقطع يفيض بالعاطفة الصادقة واللوعة والآهات المحرقة ، وهو من شدة حزنه مع أنه لم يزل في الستين من العمر لكنه يحسب نفسه شيخاً فانياً على أبواب التسعين، وقد أعتمد في رسم لوعة حزنه وحرارة شوقه إليهما متوسلاً بالتشبيه في (بلاعج ضرم كالجمر يكويني) من خلال (الكاف التشبيهية) ومن خلال (حسب) التي استعان بها في إبراز صورة شيخوخته هماً وحزناً.

وممن رثاهم الجواهري أيضاً هو ابن عمه في قصيدته (أخا ودي) التي ((ألقاها الشاعر في مجلس الفاتحة المقامة على روح ابن عمه الشيخ محمد باقر الجواهري، وكان من أعز الناس عليه وألصقهم بقلبه ومن لداته من عهد الرضاعة، وقد توفي بالسكتة القلبية عن عمر لم يبلغ الخمسين عاماً، وكان ذلك يوم ٦ تشرين الأول عام ١٩٥٢))^(٢٢). فيقول:^(٢٣)

بقلبي أم بنعشك حين مادوا
ومن ضحكاتك العذبات صُبحاً
ودمعي أم رثاؤك يُستعاد؟
أم الناعيك ليلاً يُستزاد؟
ومن إنسان عيني أم سواه
ومن ذكرى ترق أم افتقاد
يشق تؤودني الكربُ الشداد؟

فهو يظهر أساه العميق وحسرتة ((ويميل الجواهري في أحيان كثيرة الى ترديد الاستفهام فلا يأتي في بيت واحد لكنه يأتي عبر عدة أبيات تعبر عن فورة انفعالية تعترى نفس الشاعر، فينوع في أدوات الاستفهام أو يكرر الأداة نفسها في أبيات عدة (...))^(٢٤)، فقد كرر هنا (من) عدة مرات وذلك لانفعاله الحاد لفقد أعز الناس عنده، كما أنه أيضاً يكرر هذا الأسلوب في أبيات أخرى من قصيدته هذه، فيسأل أحبته الذين أخذهم الموت تيباعاً أحقاً أن متواهم في تلك الحفر وأن ألسنتهم أصبحت جماداً وأن عيونهم تناست كيف يكون السهاد. فيقول:^(٢٥)

أحباي الذين جروا تيباعاً
أحفاً أن متواكم حفيرُ
كأن الموت بينهم طراد
نضانده لأروسكم وسداد؟
أحفاً أن أنفسكم هباءً
أحفاً أن أعينكم تناست
- خلاف عيوننا - كيف السهاد؟

فيا لها من صورة تشبيهية سلسة ومعبرة عن لهفة ولوعة الشاعر أصدق تعبير (للموت السريع) عضدت تلك الصورة صور استفهامية يتخللها أسلوب تكرار دقيق يتمثل بتكرار همزة الاستفهام مع (حقاً) التي تعكس شكوك الشاعر في استحالة تغير ملامح أحبابه بعد الموت لينهي استفهاماته الانكارية باستفهام تعجبي في (كيف السهاد).

ومن قصائده الأخرى في رثاء أقاربه هي إلى روح العلامة الجواهري ويا بدر داجية الخطوب وقد درستها ضمن الرثاء الخاص برجال الدين.

ج- رثاء رجال الدين:

لقد كان لنشأة الجواهري الدينية أثر واضح على اتجاهاته الأدبية المبكرة، فقد كانت أولى قصائده التي فُرئت على المنابر هي في رثاء رجال الدين و ((إن لطبيعة العلاقة بين الشعراء والعلماء في الدين واللغة والأدب تحتم إن تطغى العلاقات الإنسانية النبيلة عند موت أحدهم فيتأسف عليه الشعراء ويرثونه ناعين رحيله مؤبنين له ذاكرين فضائله واعماله مظهرين خسارة الأمة بفقده.))^(٢٦)، والجواهري لم يكن على وتيرة واحدة في علاقته مع رجال الدين وإنما كانت علاقته بهم على حسب اتفاقهم معه في الآراء ووجهات النظر، ولذلك ((نراه حيناً يرثي بعض رجال الدين مشيداً بهم وبمكانتهم، ويصور استشهاد الإمام الحسين (ع) في كربلاء مؤكداً مبادئه الدينية وقيمه التي ثار من أجلها، لكنه في بعض القصائد الأخرى يهاجم قسماً من رجال الدين الذين لا يتفقون معه في نظرته إلى الأمور وجموحه واضطرابه، هجوماً عنيفاً متهمهم بكل أنواع المساوئ والمخازي، محرصاً أتباعهم على التمرد والثورة والانتقاض عليهم ورفض زعاماتهم الدينية.))^(٢٧)، فمن قصائده في الإمام الحسين هي عاشوراء وأمنت بالحسين^(٢٨)، أما قصائده التي هاجم بها رجال الدين فهي الرجعيون^(٢٩).

فقدت أسرة آل الجواهري العلمية في النجف عام ١٩٢٦ الشيخ حسن ابن الشيخ محمد حسن صاحب كتاب (جواهر الكلام) عن عمر يناهز التسعين عاماً، وهو من الفقهاء المتضلعين في العلم والزهد والورع وكان الجواهري في طهران عندما بلغه خبر النعي^(٣٠)، فرثاه بقصيدة تحت عنوان (إلى روح العلامة الجواهري) التي بدأها بقوله:^(٣١)

حذرتُ وماذا يفيد الحذر وفوق يميني يمينُ القدر
ومما يهون وقع الحمام أن ليس للمرء منه مفر

ويبكي ويضحك منه الوتر	يوقع ما شاء عودُ الزمان
ويوم نساء ويوم نُسُـر	"فيوم علينا ويوم لنا
وكم حكمة في معاني عمر	تعشقت من "عمر" قوله
نروح ونغدو به كالصور	أرى دهرنا مسرحاً كلنا

فهنا يشير إلى أن الحذر لا يبعد القدر وليس للإنسان مفر من الموت ثم يذكر إحدى حكم عمر الخيام وهي أن الأيام لا تتشابه فيوم مفرح ويوم محزن فهي مرة للإنسان وأخرى عليه، ثم يعطينا صورة للدهر فهو كالمرسح الذي نروح ونغدو به كالصور.

وبعد أن صور حزنه وجزعه عليه وخسارة الأمة بفقده أتجه إلى تعداد محاسن ومزايا هذا العالم الديني، فقد وصفه بالنزاهة والعفة باللسان واليد والنظر والتواضع وعدم معرفته بالتكبر مع عظم قدره في العلم، ومثلما كان في شبابه تقياً وبراً فهو أيضاً في شيخوخته كان أبر من ذلك ، وأنه خلق للنفع فلا يعرف معنى الضرر . فيقول: (٣٢)

وَعَفَ الْيَدَيْنِ وَعَفَ النَّظْرَ	حَلَفْتُ لَقَدْ كُنْتُ عَفَ اللِّسَانَ
وَنَفْسُكَ لَا يَزِدْهِهَا الْبَطْرَ	جِنَانُكَ لَا تَعْتَلِيهِ الشُّكُوكَ
وَشَيْخُوخَةٌ كُنْتُ فِيهَا أَبْرَ	شَبَابٍ مَضَى كُنْتُ بَرًّا بِهِ
وَلَمْ تَدْرِ مَا الْكِبَرُ عِنْدَ الْكِبَرِ	فَلَمْ تَدْرِ فِي صِغَرٍ مَا الصِّغَارُ
فَلَوْ رُمْتُ، لَمْ تَدْرِ كَيْفَ الضَّرْرَ	وَنَفْسُكَ لِلنَّفْعِ مَخْلُوقَةٌ

وله قصائد أخرى في رثاء رجال الدين وهي رثاء شيخ الشريعة وليت الذي بك في وقع النوائب بي وفي ذكرى الخالصي ويا بدر داجية الخطوب (٣٣).

د- رثاء الأصدقاء:

إن الصداقة هي علاقة وطيدة تربط مجموعة من الأشخاص بروابط أخوية مشتركة ويتجانسون في الصفات والأفكار، وتبنى على أسس متينة قوامها المحبة المشتركة والتضحية والإيثار والتعاون المتبادل في السراء والضراء، وفي أغلب الأحيان يبث الأصدقاء همومهم ومعاناتهم إلى بعضهم البعض، وفي حالة فقد الصديق لصديقه وذهابه إلى العالم الآخر، فإن الصديق يبكي صديقه بحرقة وألم ويتحسر لفراقهما عن بعض من دون رجعة، ولذلك ظهرت مرثي الأصدقاء التي بث الشعراء من خلالها مأساتهم ولوعتهم.

صبراً أباهُ ، وإن دهاك برزئله دهر يذوب الصبر في أرزائه ...
صبراً وشافع من تسمى "محسناً" أملٌ بحسن الصبر عند بلائه

وله قصيدة أخرى في رثاء أحد أصدقائه وهي دمعة على صديق^(٣٨).

الدلالات السياسية:

لقد عاش الجواهري في فترة مليئة بالتناقضات والصراعات والأحداث الجسام، ف ((لقد شهد العراق، خلال الثلاثينات وما بعدها، اتساع الصراع بين الكتل والفئات السياسية والاجتماعية، وهو صراع تمخض عن انقلابات وحركات عسكرية وجماهيرية وتشكيل عدد من الأحزاب اليسارية، وكان الجواهري قد أنتقل إلى بغداد ... وألقى بنفسه في صميم الأحداث كشاعر وصحفي (...))^(٣٩)، فكان لتلك الأحداث والتنافس على السلطة أثر بالغ في جلب الدمار وسفك الدماء، فخلفت العديد من القتلى الذين كان لهم دور بارز في المطالبة بحقوق الشعب وكان لرحيلهم أثر في ترك الحزن والأسى في قلوب محبيهم، فأخذوا يبكونهم بشدة مما حدا بالشعراء إلى رثائهم ومنهم الجواهري الذي أخذ يرثي الشهداء الذين سقطوا وبعض الشخصيات السياسية البارزة التي كان لها دور واضح وملاموس في الحياة السياسية.

أ- رثاء الزعماء والقادة:

لقد أقبل عبد المحسن السعدون رئيس الوزراء في العراق آنذاك على الانتحار مساء ١٣ تشرين الثاني عام ١٩٢٩، نتيجة لتهديد دار الاعتماد البريطانية له، وذلك على خلفية خطابه الذي القاه في مجلس النواب، والذي أكد فيه للشعب العراقي أن الأمة التي تريد الاستقلال يجب أن تنتهي له فهو لا يؤخذ بمجرد الكلام بل بالقوة والتضحية^(٤٠)، وكان الجواهري من حاشية الملك فيصل الأول، ولذا فقد تأثر بحادث الانتحار فنظم أربع قصائد في رثاء السعدون ((فقد كان لهذا الحادث أسف وحزن عميقين على رجل كان يتصف بصفات حميدة كما كان إيثاره الموت على الحياة من أقوى البواعث على تقديره، واحترامه بين مختلف الطبقات))^(٤١).

ففي قصيدته الثانية (المجلس المفجوع) يتحدث الشاعر عن حزن أبناء الشعب، فليلة المصاب التي حدث فيها الانتحار قد غطت على كل الليالي والمصائب، ثم يصور حزن أروقة وقياب المجلس عليه وحتى ساحة وباب ذلك المجلس يحنان لطلعة وجهه. فيقول:^(٤٢)

يبكي عليك وكله أوصابُ شعبٌ يمثلُ حزنه النوابُ
 غطت على سود الليالي ليلة وعلى المصابئ كلهن مُصاب
 المجلسُ المفجوعُ روع أهله وبكتك أروقة له وقبـاب ...
 كادت تحنُّ لفقد وجهك ساحة فيه ويسألُ عن دخولك باب

وفي مقطع آخر منها يندد بالنواب الذين لم يحققوا ما كان يرجوه أبناء الشعب منهم ويصفهم بأن لا حول ولا قوة لهم فهم فقط يرفعون أصابعهم أما بالإيجاب أو السلب ، لذا استعان بالصورة التشبيهية في رسم دور النواب (أصابعهم كأنها أحطاب) و (هل أنتم أخشاب) (تجمدون كأنكم أنصاب) المتجسد في عدم منفعتهم وجمود دورهم وشكلية أساليبهم المبنية على أساس الطاعة العمياء لرغبة القوى العليا. فيقول: (٤٣)

ولقد أقولُ لرافعين أصابعاً ليست تُحسُّ كأنها أحطاب
 رهن الإشارة تخنفي أو تعتلي وينال منها السلبُ والإيجاب
 ماذا نويتم سادتي: هل أنتمُ بعد الرئيس - كعهده - أخشاب
 هل تنهضون إذا استثيرت نخوة أو تجمدون كأنكم أنصاب

ثم يذكر النواب بوصية الزعيم الراحل وهي أن الاستقلال لا يمكن الحصول عليه بمجرد الكلام، ويخاطب الشاعر الأمم الضعيفة بعدم الاقتراب من القوي إلا عندما تكون هي قوية. فيقول: (٤٤)

أوحى "الزعيم" إلى الجزيرة كلها أن ليس يدركُ بالكلام طلاب
 يا هذه الأمم الضعافُ تروياً لا تنهضي صُعداً وأنت زغاب
 لا تقطعي سبباً ولا تنهـوري نزقاً إذا لم تكملُ الأسباب

أما قصائده الأخرى في رثاء السعدون فهي إلى السعدون وفي الأربعين وفي أربعين السعدون (٤٥)، وهو من خلال هذه القصائد أراد بيان مدى خسارة الأمة لفقده وان انتحار الزعيم ما هو إلا دليل على شجاعته وحرصه على استقلال البلاد، كما أنه أراد من أعضاء مجلس النواب الإحساس بآلام الشعب وأماله، ((وأن قصائده هذه فيها رأي وطني وفيها خط واضح للحكم الصحيح، وهو في كلها مع الشعب والمدافعين منهم وضد الذين يهادنون الاستعمار من نواب أميين ورجال حكم مستغلين.)) (٤٦).

ومن قصائده التي كان لها وقع كبير على الساسة المتخاذلين هي قصيدته (عبد الحميد كرامي) التي ((ألقاها الشاعر في الحفلة التي أقامتها لجنة تأبين عبد الحميد كرامي في بيروت عام ١٩٥٠... وكان

للقصيدة صداها وأثرها البليغان في كل أرجاء لبنان، ونشرتها عدة صحف في بيروت، وأعدت نشرها أكثر من مرة.)^(٤٧)، وأستهلها بقوله:^(٤٨)

باق - وأعمار الطغاة قصار - من سفر مجدك عاطر موار

ولما تميزت به هذه القصيدة من جرأة واضحة فقد ((اضطرت الحكومة اللبنانية أن تطلب منه مغادرة البلاد لمدة ٢٤ ساعة وبلغ بهذا القرار وهو على مائدة الشيخ أحمد الظاهر في النبطية.))^(٤٩)، وذلك لأنه قد فضح الحكومات العربية التي تعمل لصالح المخططات الاستعمارية ولذا فإن تلك الحكومات لم تستقر ولم تثبت لأنها لم تشكل وفق إرادة الجماهير ولا على أساس الانتخابات وإنما هي تأتي وتذهب تبعاً لإرادة المستعمرين، والجواهري في هذه القصيدة يعطي صورة تشبيهية رائعة لتلك الوزارات المرجوجة كما يرج النعش عندما يدق النجار المسمار فيه، فلبنان وأن كان قد تخلص من النفوذ الفرنسي إلا انه قد استبدله بنفوذ واستعمار آخر إلا وهو الاستعمار الانجلو أمريكي الذي ثبت قواعده في لبنان بحجة أنهم ساعدوا لبنان على طرد النفوذ الفرنسي. فيقول:^(٥٠)

ولمست كرسياً يرج كأنه
ورأيت إذ "باريس" شلت كفها
نعشٌ يُدقُّ بجنبه مسمار
كيف اصطفاه بلندن نجار

وفي مقطع آخر يندد بالحاكمين في لبنان ويشير إلى مدى سيطرة المستعمر على معظم شؤون البلاد ولاسيما العسكرية والسياسية والاقتصادية، وإلى مطاوعة الطبقة الحاكمة للمستعمرين وانتفاعها الفردي منهم وتعريض البلاد للضغط الشديد تحت ستار الحكم الوطني. فيقول:^(٥١)

لبنانُ نجوى مرةً وسرارُ
ماذا يُرادُ بنا؟ وأين يُسارُ؟
إنا بحكم بلاننا سُمـارُ
واللؤلؤ داج، والطريقُ عثارُ
والوحشُ يربضُ في الثنايا مُنذراً
وأعقاب لبنانُ تدنسُ وكـرهُ
للأجنبي قواعدٌ ومطارُ؟

ثم يذكر اللبنانيين لتشابه الواقع بين العراق وبين لبنان بابتلاء العراق بالاستعمار ثم ابتلائه بما أقيم على أنقاض ذلك الاستعمار من حكم وطني تابع للمستعمرين كما هو الحال في لبنان بعد تخلصه من الاستعمار الفرنسي، وهو يقول لهم أننا نحن في العراق كنا لكم (نعم النذير) لو أنكم أردتم الاستفادة من التجارب التي مررنا بها. فيقول:^(٥٢)

كنا لكم نعم النذيرُ لو أروعى
غاو، ولو ألوى به إنذار
ما أشبه التاريخ، دامي جرحنا
كجروحكم بأكفنا نغار

وفي المقطع الأخير يأتي الشاعر بصورتين أستعاريّتين الأولى: يشبه الحكام العرب المتغطرسين الذين يحاولون بمظاهر غطرستهم وتجبرهم أكمال النقص الذي يشعرون به من إنهيار ضمانتهم بما يقدمون عليه من أعمال يتحدون بها ارادة الجماهير العربية، فيشبه هؤلاء الحكام بالمرأة العجوز الشمطاء التي تحاول التعويض عن جمالها المفقود وعن شبابها بما تضعه على جسدها من هذا الجماد البراق من الحلي، أما الثانية: فإنه يشبه تلك الشعوب العربية وأولئك الحكام في غطرستهم التي يتظاهرون بها وهم المدفوعون بالنفوذ الأجنبي بما تشهده أسواق النخاسة من بؤس الرقيق المعذب، ومن سمسرة هذه الأسواق وقد نفخوا صدورهم لمجرد شعورهم بالسيطرة على هؤلاء النوع من البشر الذين قادتهم الأقدار لمثل هذا المصير. فيقول^(٥٣)

أبصرتُ شمطاءً تتيهُ وفوقها
جسدٌ تعوض بالحلي وجرسه
فذكرتُ كيف يُشدُّ من مُتغطرس
ورأيتُ في سوق النخاسة تعتلي
وبأسن من بؤسهم مستنقع
فذكرتُ ما تلقى الشعوبُ ضعيفة
تشكو الضياع قِلادةً وسوار
إذ غاض منه شبابُه الفوار
واهي الضمير، ضميرهُ المنهار
وجه الرقيق مهانةً وصغار
قد راح ينفخُ صدرهُ سمسار
عزلاً تسوس أمورها أغمار

كما له قصائد أخرى في رثاء القادة السياسيين تناول من خلالها الواقع السياسي في العراق والوطن العربي والصراع ضد الحكومات الظالمة والمستعمرين ومحاولة إثارة مشاعر الغضب لدى الجماهير والأخذ بالثأر، ومن هذه القصائد علي الخالسي وعلى سعد وذكرى الهاشمي وخبر وجمال الدين الأفغاني وذكرى أبو التمن وفي ذكرى غاندي وإيها الفارس وذكرى عبد الناصر^(٥٤).

ب- رثاء الشهداء:

إن الشاعر إنسان يتأثر بظروف مجتمعه ولاسيما السياسية منها، فهو يشارك أبناء مجتمعه في كفاحهم ونضالهم ضد السلطات الظالمة، وهو الصوت المعبر عن همومهم الذاتية ومشاكلهم، وقد ((عاصر الجواهري ظروف تصاعد المد الوطني في العراق أبتداء من ثورة حزيران ١٩٢٠))^(٥٥)، وحتى ((في

السنوات التالية لثورة العشرين وفي ظل الكيان السياسي الجديد للعراق واصل الجواهري متابعة الأحداث))^(٥٦)، وكان يحس بمعاناة الشعب من سياسة الحاكم المستغل لثروات البلاد ويزداد حزنه عندما يسقط أحد أبناء وطنه شهيداً نتيجة وقوفه بوجه السلطات الغاشمة، فيكيه بلوعة وأسى ولاسيما عندما يكون شخصاً مقرباً إليه فيرثيه معبراً عن حسرته تعبيراً صادقاً بألفاظ رقيقة يرسم من خلالها صورة شعرية تعبر عن حجم الخسارة لفقده، مشحونة بعواطفه وأنفعالاته النفسية لذلك المصاب الجلل.

ومن قصائده (ضحايا الانتخاب) التي ((نظمها الشاعر راثياً بها الأخوين عمر وبكر، وكان لمصرعهما أثناء انتخابات عام ١٩٢٨ النيابية أثر كبير في النفوس.))^(٥٧)، والجواهري في رثائه للأخوين يعبر عن معاناة الشعب من جراء تلك الانتخابات التي ذهب ضحيتها الأبرياء، ويعطي صورة واضحة عن ذلك الحكم المتواطئ مع الاستعمار، فلو أن صحاري العراق ملئت دماً كدماء هذين الشهيدين لما رأت انقلاباً في أوضاع البلاد السياسية لأن الاستعمار قد سيطر على هؤلاء النواب الذين لا يعرفون سوى مصالحهم الشخصية. فيقول:^(٥٨)

ولو كدميهما سالت دماء محرمة لما رأت انقلابا

ثم يلتفت إلى الذين يظنون أن الجو قد صفا لهم ويحذرهم من عاقبة الأمور وينذرهم بالغضب الشعبي القادم نحوهم، ولو أن الشعب يعلم بنوايا هؤلاء النواب السائرين في ركاب الاستعمار لما طالب بإجراء الانتخابات. فيقول:^(٥٩)

سيعلم من يخال الجو صفواً	بأن الجو مملوء ضبابا
ومن ظن المجالس عامرات	بمدح أنها شُحنت سيابا
ويعرف من أراد صميم شعبي	رمياً أي شاكلة أصابا
ويُدرك أين صفو الماء عنه	وريفة إذا ورد اللصابا
ولو عرفت بلادي ما أرادت	بها النواب لم ترد أنتخابا

ويتأسف الشاعر للحالة المريرة التي وصل لها الشعب من جراء تلك الانتخابات المزيفة التي أعطت الوعود الكاذبة للناس. فيقول:^(٦٠)

فوا أسفاً لمطلب طلابا	يخال الموت أقرب منه قابا
وقد اتخذوا لحوم بنيه زادا	وقد لبسوا جلودهم ثيابا
رضوا من صُبَّحهم فجرأ كذاباً	ومن أنوار شمسهم اللعابا

تلك كانت تجربة الشاعر التي رسمها بصورة كنائية غاية في الجمال والايجاز لترسم لنا الخداع السياسي والوعود المزيفة والأحلام الكاذبة بفرشاة كنائية تمثلت في الصور الآتية (لحوم بنيه زادا) (لبسوا جلودهم ثيابا) كناية عن العراء والجوع و (الرضا بالفجر الكاذب ولهب الشمس بدل ضوءها) كناية عن الأحلام الذاتية والصلاح والرفاهية المميتة.

ومن الشهداء الذين سقطوا خلال المظاهرات الشعبية ضد المحتلين هو جعفر شقيق الجواهري ، وقد أشرت إلى إحدى قصائده في رثاء أخيه سابقاً، وله قصيدة أخرى بعنوان (يوم الشهيد) ((نظمت بمناسبة الذكرى الأربعينية لاستشهاد الشهيد "جعفر الجواهري" الذي جرح في معركة الجسر الشهيرة يوم ٢٧ كانون الثاني عام ١٩٤٨ ، وأستشهد متأثراً بجراحه يوم ٤ شباط.))^(٦١)، ((وعلى الرغم من طول القصيدة فلا يلاحظ المستمع أي فتور في التوتر الموسيقي للقصيدة الذي ظل محافظاً على نبرته النغمية الحزينة الثائرة طوال القصيدة.))^(٦٢).

وفي هذه القصيدة يبين الشاعر وجهة نظره في مفهوم الشهادة فهي ذات قيمة إنسانية سامية ومفخرة للأجيال، ولذا فهو يُحيي (يوم الشهيد) ويكرر هذه العبارة عشر مرات تأكيداً منه لما تركته الشهادة في أعماقه من حرمان وشعور بالألم والحزن العميقين لفقد أعز الناس عنده، فيعطي تصويراً لعظم قدر هذا اليوم فبه تؤرخ الأعوام وبه تتعطر الأرض بتلك الدماء الزكية وبه تُبعث الأجيال وتقوم القيامة على أولئك الطغاة وبه العُناة سيُحشرون مُسودى الوجوه. فيقول:^(٦٣)

يوم الشهيد: تحية وسلام	بك والنضال تؤرخ الأعوام
بك والضحايا العر يز هو شامخاً	علم الحساب، وتفخر الأرقام
بك والذي ضم الثرى من طيبهم	تتعطر الأرضون والأيام
وبك يُبعث "الجيل" المحتم بعثه	وبك "القيامة" للطغاة تُقام
وبك العُناة سيُحشرون وجوههم	سود، وحشو أنوفهم إرغام

وفي مقطع آخر منها يحذر الحكومة من سياسة العنف والإرهاب ومن مغبة السير في ذلك الطريق ويتوعددها لأن الشعب إذا ثار فإنه سوف ينتصر عليها ويهزمها. فيقول:^(٦٤)

تبا لدولة عاجزين توهموا	أن "الحكومة" بالسياط تُدام
والويل للماضين في أحلامهم	إن فرَّ عن "حلم" يروع منام
وإذا تفجرت الصدورُ بغیظها	حنقاً كما تتفجر الأنعام
وإذا بهم عصفاً أكیلاً يرتمي	وإذا بما ركنوا إليه رُكام

ثم يبين كيفية معاملة الحكومة للناس إذ أصبح من مكارم أهل هذا الزمن السجن والتشريد والإعدام و
أستعمال السياط إغاثة للمظلومين وطعاماً للجائعين. فيقول: (٦٥)

وأتي زمانٌ من مكارم أهله
والسوط يحترشُ الظهور ووقعه
وكأنه "للمستغيث" إغاثة
السجنُ، والتشريدُ، والإعدام
في سمع محترسٍ به أنغام
وكأنه " للجائعين " إدام

ويبكي الشاعر ويعبر عن حزنه بألفاظ توحى بالحسرة والألم والمرارة لرحيل أخيه وهو إنسان كريم لم
يبخل بالغالي والنفيس من أجل الآخرين. فيقول: (٦٦)

قد كان يعطفني عليك ملامٌ
إن لو سلمت فلا شبابي مُزَنَدٌ
لو لم تُجبنني من رفاتك هامة
ما كنت "نحاماً" بنفسك للورى
أن لو ذخرتُك أيها الصمصام
أسفأً، ولا حدي عليك كهام
صبراً جميلاً أيها اللوام
أفأنت بي من أجلهم نحام

وبالرغم من لوعة الشاعر فإنه يقر بالحكمة وهي لا بد من وجود ضحايا لكي تتحرر الأمم ويُعاد بناؤها
وبالموت تستقيم حياة الأجيال القادمة، وفقدان الحياة والعيش السوي هما واحد ودم الضحايا هما تؤمان.
فيقول: (٦٧)

نحن الضحايا: للشعوب فقاره
هذي القبورُ قنابرٌ مِبْثوثة
ما كان جيلٌ تستقيمُ قنأته
فالتكلُّ والعيشُ السوي سوية
ولكل ما يبني الشعوب قوام
لمكابرٍ وحفيرها ألغام
إلا وموتٌ، يستقيمُ، زوام
ودمُ الضحايا والحياة توام

وله قصائد أخرى في رثاء الشهداء كان متوسلاً فيها بأساليب بلاغية زادت صورته الشعرية ثراءً وعمقاً
في الفكرة والأسلوب ومن هذه القصائد الشهيد قيس وخلفت غاشية الخنوع وذكرى المالكي والفداء والدم (٦٨).

الدلالات الفكرية :

هنا يستلهم الجواهري غرض الرثاء للتعبير عن مكانة المرثي العلمية أو الأدبية وأثره في الفكر
واستخلاص الحكم من حياة المرثي وطبيعة شخصيته وما تركه من أثر في حياة أهله ومحبيه، ويُعد رثاؤه
لزوجته وأخيه ضمن هذا النوع من الدلالات وقد تمت الإشارة إليهما سابقاً.

أ- رثاء الشعراء:

يتألم الشعراء على رفاق دريهم سواء الذين سبقوهم أو عاصروهم وذلك عندما يرحل بهم الموت بعيداً فيزداد حزنهم على زملائهم، وتكون المأساة أشد وأعمق لأنها تذكرهم بحقيقة الموت المرة فيكون عليهم ويندبونهم بقصائد معبرين من خلالها عن خسارة الأمة لفقدائها علماً من أعلامها المتألقين، فضلاً عن أسفهم العميق لرحيل أحدهم ناعين من خلاله الشعر ودولته.

ومن الشعراء الذين رثاهم هو شاعر النيل في قصيدته (حافظ إبراهيم) فقد نعى على الشعر ذهاب أحد الأحرار المراعين له، مصوراً الخسارة الكبرى لفقده، معطياً صورة مشرقة عن شخصية المرثي وأنهم بحاجة إلى وجهه الطلق وطبعه المحبب، وأن الذي كان يهز الناس بحضوره لم تبقَ منه سوى الذكرى، وبالرغم من العناية التي قدموها له فإنه قد فارقه وأرتحل فيدعو الجواهري برعاية الله له. فيقول: (٦٩)

نعوا إلى الشعر حُرّاً كان يراعه	ومن يشق على الأحرار منعاه ...
أعزز بأننا افتقدناه فأعوزنا	وجةً طليقاً وطبعاً خف مجراه ...
إن الذي هز كل الناس محضره	لم يبقَ في الناس منه غير ذكراه
نأت رعايتنا عنه وفارقنا	فراق محتشم فليرعاه الله

وفي المقطع التالي يتأسف الجواهري لأن التراب قد حوى شاعراً مثله يمتلك صفات شعرية جعلته في مصاف الشعراء المرموقين، فمن خلال هذه الأبيات يبين الجواهري مقدرة الشاعر في قول الشعر وكيفية انسيابه على لسانه فهو شاعر مبدع يتخير الكلم العالي ولو أن القريض يستطيع النطق لقابله بالشكر على حسن إجادته

في قول الشعر. فيقول: (٧٠)

حوى التراب لساناً كله مَلَح	ما كل محترف للشعر يعطاه ...
تخير الكلم العالي فسلمطه	على القوافي فحلاها وحلاه
ومدها ببنات الفكر مرسلة	ترسل السيل أدناه كاقصاه
من كل معنى لطيف زاد رونقه	إبداع "حافظ" فيه فهو تياه
قلو يطيق القريض النطق قابله	بالشكر عن حسن ما اسدى فاطراه

ثم يبين حجم الخسارة لفقده مُشبهاً ذلك بفقد العين لمقلتها أو بفقد المقاتل لذراعه الأيمن وهذه إشارة منه على عظم مكانة المرثي والفراغ الذي أحدثه رحيله في ساحة الشعر العربي. فيقول: (٧١)

إنا فقدناه فقد العين مُقلتها أو فقد ساع إلى الهيجاء يُمناه

أما في البيت الأخير فيصور الجواهري كيفية وداعه للفقيد إذ أن الدموع منه تجري والنفس والقلب يتعذبان. فيقول: (٧٢)

ودعته ودموع العين فائضة والنفس جياشة والقلب أواه

ومن قصائده الأخرى هي (أبو العلاء المعري) ففي عام ١٩٤٤ كان الجواهري مصطافاً في لبنان، وفي هذه السنة أقام المجمع العلمي العربي بدمشق المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري، وكان الجواهري في الشام عازماً على الرجوع فأبرقت وزارة الخارجية لممثلها في الشام ليرجو الجواهري بتمثيل العراق في هذا المهرجان فوافق وألقى فيه تلك القصيدة الرائعة (٧٣). قانلاً: (٧٤)

قِفْ بالمعرة وامسح خدها التربا وأستوح من طوق الدنيا بما وهبا
وأستوح من طبب الدنيا بحكمته ومن على جرحها من روحه سكبها
وسائل الحفرة المرموق جانبها هل تبتغي مطمعاً أو ترتجي طلبها؟
يا بُرج مفخرة الأجداث لا تهني أن لم تكوني لأبراج السما قُطبها

ففي هذا المقطع يرسم الجواهري صورة شعرية عن المرثي وهي (طوق الدنيا بما وهبا وطبيب الدنيا بحكمته وعلى جرحها من روحه سكبها) وهذه الصور تجسيد لفكرة المعري ومحتنه وثورته في الحياة التي عانى منها الكثير، ثم ينتقل إلى تصوير (الحفرة المرموق جانبها) فيشخصها وقد ضمت شيئاً غالباً من خلال الاستفهام المجازي الفاعل ويحول هذه الحفيرة إلى شئ مختلف عن الواقع فهي (برج مفخرة الأجداث)، وأن للتشخيص في هذا المقطع الأثر الفاعل في تجسيد ما كان يتمتع به المرثي من علو شأن ومنزلة رفيعة عبر صور (تطويق الدنيا بعطائه وحكمته التي طبب الدنيا بها وروحه مداوية لها)، فمن خلال هذه الصور بين مكانة المرثي وكيف أنه برحيله قد ترك فراغاً في مملكة الشعر العربي.

((إن أبا العلاء بات في شعر الجواهري نموذجاً خالداً لحرية الفكر والتمرد على القيم البالية، ومثالاً ممتازاً من التأريخ العربي يحسن الشاعر بعثه وإزالة التراب عنه، لي شخص فيه حالة الشاعر الحديث ومأساته)) (٧٥)، ولذا فهو يطلب من المرثي أن ينير طريق الأجيال لأنه صاحب أفكار قدسية، وإن العبقري عليه أن يختار أما الخلود على مر العصور أو كسب المال فقط. فيقول: (٧٦)

نور لنا، إننا في أي مُدسجٍ مما تشككت، إن صدقاً وإن كذباً
أبا العلاء وحتى اليوم ما برحت صناجة الشعر تهدي المترف الطربا
يستنزلُ الفكر من عليا منازلهِ رأس ليمسح من ذي نعمة ذنباً...
وان للعبري الفذ واحدةً إما الخلود وإما المال والنشبا

وفي أبيات أخرى من هذه المرثية يذكر الجواهري كل الميزات الحسنة في المرثي التي جعلته خالداً وهي مجتمعة فيه دون سواه. فيقول: (٧٧)

أجلتُ فيك من الميزات خالدةً حُرية الفكر والحرمان والغضبا

مجموعة قد وجدناهُن مفردةً لدى سواك فما أغنينا أربا
ومن الشعراء الذين رثاهم الرصافي في قصيدته (معروف الرصافي) وقد جمع في مطلعها كل معاني الخير في شخص المرثي. فيقول: (٧٨)

لاقيت ربك بالضمير وأثرت داجية القبور
وأشعت في الأبد البهيد م طلاقة الأبد المنير
وذهبت لم تعلق يدا ك بغير مكرمةٍ وخير
وسمرت والألم الدفي ن ونعم ذلك من سمير

ثم يتخيل المرثي بين السالفين والمعاصرين له من نوابغ العالم وقد نزلوا ضيوفاً على تلك الحفر وهم صفوف متلاحقة من عشاء الرصافي في عالم الأبدية، وشبهه بقافية جديدة مشعة قد أضيفت على قصيدة طويلة من خلال ما يتمتع به من حس بلاغي بياني جماله في بساطة صورته، فأستعان بالتشبيه في مدح المتوفي ليجعله قافية تشع أنواراً ويجده سطرأً في (سفر الردى) إشارة إلى أعماله الأدبية الخالدة سواء كانت شعراً أم نثرأً. فيقول: (٧٩)

أضيفت قافية تشع على "قصيد!" من عشير
وأجد في سفر الردى سطر لمؤتلق السطور

وقد نظمها عام ١٩٥١ بمناسبة الذكرى السادسة لوفاة الرصافي، وفيها أشاد بالرصافي وبمواقفه الإنسانية وبنبه إلى ميزة بارزة من ميزات المرثي وهي إنطباع شعره بوجه عام بطابع التأثر الإنساني بالضعفاء والفقراء والمساكين من أبناء المجتمع^(٨٠)، مصوراً كيفية عطفه على الإيتام وتألمه لحالة الأمهات المرضعات الفقيرات اللواتي جفت صدورهن من اللبن. فيقول: (٨١)

واكبت ركب البائسيــــــــــــن	وجُبت مُترفة القصور
ومريت خلف البؤس والنــــــــــــد	عمى شطيراً في شطير
ومسحت من دمع اليتيــــــــــــم	م بأهة الكبد الحرور
و "المرضعات" وقد خوت	أثداؤهن من الضمور
وتيبس الطفلُ الرضيــــــــــــم	عُ فما سوى نفس بهير

ومن خلال مرثيته هذه أشار الجواهري إلى دور الرصافي الفعال في مناصرته للمرأة في قضيتها والمطالبة بإنصافها والدعوة إلى تحريرها ومساواتها مع الرجل من ناحية الحقوق التي يتمتع بها ولاسيما حقها في التعليم والعمل، محاولاً القضاء على التقاليد والعادات الاجتماعية البالية التي كانت تنظر إلى المرأة على أنها مخلوق دنس لا يجوز اطلاق سراحه في الحياة خوفاً على نظافة المجتمع، إلى كل هذا يشير الجواهري في قصيدته التي يرثي بها الشاعر الخالد الرصافي. فيقول: (٨٢)

وأطرت من تلك "النحو	س" معششات في الوكور
تلك "التقاليد" العريقة	في الغباء وفي الدثور
ورفعت من تلك "الأسيرة"	باسم ربات الخــــــــــــدور!
مثل السوام أجل بيع رقابها	باسم "المهــــــــــــور" !
والوائد السفاح بــــــــــــر	ر جرْمُه باسم "الغيور"
فحملت عنها طيعــــــــــــاً	دية التحرر والسفــــــــــــور

في المقطع السابق هجوم عنيف على التقاليد والعادات المتوارثة الغبية ومن تلك التقاليد قضية ارتفاع المهر، وتبرير الوالد أو الوائد السفاح كما يسميه الجواهري جرمة بأسم الغيرة وهو منها براء، ويشير الجواهري إلى تبني الرصافي لمسألة السفور والحجاب ودعوته إلى ضرورة تحرر المرأة من العباءة والحجاب وما تعاني من ظلم المجتمع لها.

وله قصائد أخرى في رثاء الشعراء هي أحمد شوقي والشاعر الجبار والزهاوي وعمر الفاخوري وأخي الياس والرصافي وبي كه س وفتى الفتيان/ المتنبي (٨٣).

نتائج البحث:

- لقد توصلت في دراستي هذه إلى مجموعة من النتائج وهي:
- ١- لقد كان للظروف التي مر بها الجواهري وما تعرض له من ضغوط نفسية أثناء أعترا به بعيداً عن الوطن الدور الفعال في أستحضار صور الموت قبل وقوعه، فذهب بفكره إلى تصور عدم إستفادة ديدان الأرض من جسده المنهك بعد الموت، راثياً بذلك نفسه.
 - ٢- إن الجواهري يتألم لموت أقاربه ويعبر عن حزنه وأساه بدموع فياضة، وكان لطبيعة الميتة أثر بالغ في نفسه، فقد أجاد وأبدع في تصوير حالة الحزن والتأثر وما بثه خبر رحيل زوجته المفاجئ في نفسه من حرقة شديدة وألم عميق ولأسيما أنه كان مسافراً بعيداً عنها، فحملت مرثيته تلك لواعج الحزن العميق الذي يوحى بأن في صدره ناراً تلتهب لفقدائها، كما أن مرثيته في أخيه - الذي مات وهو ما زال في ربيع حياته- قد تميزت هي الأخرى بشدة اللوعة والأسى وتهويل المصاب فبكاه بكاءً حاراً وأنشغل بعاطفته المتأججة جزءاً من المصيبة.
 - ٣- أمتازت مرثي الجواهري لاصدقائه بعمق الأسى وشدة الحزن، وذلك لصدق العلاقة وقوتها بين الشاعر وأصدقائه فجاءت مرثيته معبرة عن خسارته وتأثره الشديدين.
 - ٤- إن الجواهري من خلال رثائه لبعض القادة السياسيين أعطى صورة واضحة الملامح عن الحياة السياسية والاجتماعية في تلك الفترة التي عاش فيها والكيفية التي تُدار بها دفعة الحكم، فضلاً عن بيانه لوجهة نظره السياسية من خلال شخصية المرثي، ولذا فإن قصائده تُعد سجلاً حافلاً بالأحداث الكبرى والتحويلات السياسية التي تمخضت عن تلك الأحداث، فهو يندب قادة الأمة السياسيين وشهداءها الأبطال مبيناً من خلالها معاناة الشعب ومأساته لرحيلهم.
 - ٥- لقد أمتازت مرثي الجواهري في الشعراء باللوعة المحرقة وصدق العاطفة وتصوير خسارة الشعر والأمة لرحيلهم، فضلاً عن بيان مكانة هؤلاء الشعراء الأدبية ومدى قيمة التراث الأدبي الذي تركوه.
 - ٦- كان للجواهري الدور الكبير في بيان الأفكار والآراء والقضايا التي تصدى لها الشعراء المرثيين، فضلاً عن إيصال وجهة نظر المرثي في الحياة ومشاركته الوجدانية في قضايا المجتمع الهامة، مصوراً بذلك خسارة المجتمع لرحيل مثل هؤلاء المفكرين عنه، الذين كان لهم الدور الأساس في تغيير الكثير من المفاهيم والتقاليد والعادات المتوارثة.
 - ٧- لقد كان للاستفهام حيز ليس بالقليل في رسم صور حزنه وتجسيد آلامه ولربما يكون هذا الأسلوب هو الأقوى من بين وسائل توسله في رسم ملامح تجربته الشعرية الحزينة خاصة في مرثيه.

الهوامش

- ١- لسان العرب مادة (رثا): ١٣٨/٥.
- ٢- تهذيب اللغة مادة (رثى): ١٢٣/١٥.
- ٣- نفسه: ١٢٤/١٥. وينظر تاج العروس مادة (رثا): مج.١/١٤٤، القاموس المحيط مادة (الرثية): ٣٣٤/٤، مختار الصحاح مادة (رثا): ٢٣٣.
- ٤- الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، مظفر عبد الستار غانم، رسالة ماجستير: ٤٩.
- ٥- لسان العرب مادة (أبن): ٥٢/١. وينظر تاج العروس مادة (أبن): مج.١/١١٦، تهذيب اللغة مادة (أبن): ٥٠٣/١٥، أساس البلاغة مادة (أبن): ١٠.
- ٦- الرثاء في الشعر الجاهلي و صدر الإسلام، بشرى الخطيب، رسالة ماجستير: ١٧.
- ٧- لسان العرب مادة (ندب): ٨٧/١٤. وينظر تاج العروس مادة (ندب): مج.١/٤٨١، مختار الصحاح مادة (ندب): ٦٥١.
- ٨- الرثاء السياسي في العصر العباسي في القرنين الثالث والرابع الهجريين، محمد الخالدي، رسالة دكتوراه: ٢٨.
- ٩- لسان العرب مادة (نعا): ٢١٦/١٤.
- ١٠- أساس البلاغة مادة (نعي): ٧٦٥. وينظر تاج العروس مادة (نعي): مج.١/٣٧٣، تهذيب اللغة مادة (نعي): ٢١٨/٣، القاموس المحيط مادة (نعا): ٣٩٩/٤، مختار الصحاح مادة (نعي): ٦٦٩.
- ١١- الرثاء السياسي في العصر العباسي في القرنين الثالث والرابع الهجريين: ٢٩.
- ١٢- ديوان الجواهري، ج: ٥: ٧٤٧.
- ١٣- رثاء الذات في الشعر العربي إلى نهاية العصر الأموي، دراسة موضوعية فنية، ازدهار التميمي، رسالة ماجستير: ١٨١.
- ١٤- ديوان الجواهري، ج: ٢: ٣٧٥.
- ١٥- المرأة في الشعر العراقي الحديث، أحمد المفرجي: ٤٧.
- ١٦- ديوان الجواهري، ج: ٢: ٣٧٦.
- ١٧- نفسه.
- ١٨- نفسه، ج: ٣: ٥٠١.

- ١٩- شعر الجواهري دراسة موضوعية وفنية، أناهيد الشويلي، رسالة ماجستير: ٣٤.
- ٢٠- ديوان الجواهري، ج:٣: ٥٠٢.
- ٢١- نفسه، ج:٥: ٧٨٦.
- ٢٢- نفسه، ج:٤: ٦٣٦.
- ٢٣- نفسه.
- ٢٤- لغة الشعر عند الجواهري، علي ناصر، رسالة دكتوراه: ٥٠.
- ٢٥- ديوان الجواهري، ج:٤: ٦٣٧.
- ٢٦- الرثاء في شعر العصر العباسي الأول: ٣٥٥.
- ٢٧- تطور الشعر العربي الحديث في العراق، د. علي عباس علوان: ٢٧٤.
- ٢٨- ينظر ديوان الجواهري، ج:٢: ٣٤٣-٣٤٥، ج:٣: ٤٩١-٤٩٣.
- ٢٩- ينظر نفسه، ج:١: ٢٠٧، ٢٠٦.
- ٣٠- ينظر الجواهري شاعر العربية، عبد الكريم الدجيلي، ج:١: ٣٢٢.
- ٣١- ديوان الجواهري، ج:١: ١٥٨.
- ٣٢- نفسه: ١٥٩.
- ٣٣- ينظر نفسه: ٥٨، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٥، ١٥٦، ج:٢: ٣٥٦-٣٥٨.
- ٣٤- ينظر الجواهري شاعر العربية: ٢٥٨.
- ٣٥- ديوان الجواهري، ج:١: ١٢٣.
- ٣٦- نفسه: ١٢٤.
- ٣٧- نفسه: ١٢٥.
- ٣٨- ينظر نفسه، ج:٢: ٢٥٦.
- ٣٩- لغة الشعر الحديث في العراق، د. عدنان العوادي: ٣٤٣.
- ٤٠- ينظر الجواهري شاعر العربية: ٤٨٤.
- ٤١- نفسه.
- ٤٢- ديوان الجواهري، ج:١: ٢٢٠.
- ٤٣- نفسه.

- ٤٤ - نفسه: ٢٢١ .
- ٤٥ - ينظر نفسه: ٢١٧-٢١٩، ٢٢٥-٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩ .
- ٤٦ - الجواهري شاعر العربية: ٤٩٩ .
- ٤٧ - ديوان الجواهري، ج: ٥٩١ .
- ٤٨ - نفسه: ٥٩٢ .
- ٤٩ - الجواهري شاعر العربية: ١٠٨ .
- ٥٠ - ديوان الجواهري، ج: ٥٩٣ .
- ٥١ - نفسه: ٥٩٥ .
- ٥٢ - نفسه: ٥٩٦ .
- ٥٣ - نفسه: ٦٠٠ .
- ٥٤ - ينظر نفسه، ج: ١٣٥-١٣٧، ١٨٨، ١٨٩، ج: ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٧، ج: ٤٢٩-٤٣٢، ٤٤٧-٤٥٣، ج: ٧٤١، ٧٤٢، ج: ٩٣٧، ٩٤٢-٩٤٨ .
- ٥٥ - محمد مهدي الجواهري، دراسات نقدية، هادي العلوي: ٢١ .
- ٥٦ - نفسه .
- ٥٧ - ديوان الجواهري، ج: ١٩٣ .
- ٥٨ - نفسه: ١٩٤ .
- ٥٩ - نفسه .
- ٦٠ - نفسه .
- ٦١ - نفسه، ج: ٥٠٧ .
- ٦٢ - التيار القومي في الشعر العراقي الحديث، د. ماجد السامرائي: ٣٩٣ .
- ٦٣ - ديوان الجواهري، ج: ٥٠٧ .
- ٦٤ - نفسه: ٥٠٩ .
- ٦٥ - نفسه: ٥١١ .
- ٦٦ - نفسه: ٥١٥ .
- ٦٧ - نفسه .

- ٦٨- ينظر نفسه، ج:٣، ٥١٦، ٥١٧، ج:٤، ٦٧٢-٦٧٧، ٦٩١-٦٩٧، ج:٥، ٨٧٩-٨٨٨.
- ٦٩- نفسه، ج:٢، ٢٨٠.
- ٧٠- نفسه.
- ٧١- نفسه: ٢٨٢.
- ٧٢- نفسه.
- ٧٣- ينظر الجواهري شاعر العربية: ١٠٢.
- ٧٤- ديوان الجواهري، ج:٣، ٤٢٢.
- ٧٥- تطور الشعر العربي الحديث في العراق: ٢٨٦.
- ٧٦- ديوان الجواهري، ج:٣، ٤٢٢.
- ٧٧- نفسه: ٤٢٥.
- ٧٨- نفسه، ج:٤، ٦٠٥.
- ٧٩- نفسه.
- ٨٠- ينظر المرأة في الشعر العراقي الحديث: ٤٠، ٤١.
- ٨١- ديوان الجواهري، ج:٤، ٦٠٦.
- ٨٢- ديوان الجواهري، ج:٤، ٦٠٧.
- ٨٣- ينظر نفسه: ج:٢، ٢٨٦-٢٩٠، ٣٤٧-٣٥٠، ٣٥٢-٣٥٤، ج:٣، ٤٦٢-٤٦٤، ٤٦٧، ٤٦٨، ج:٤، ٧٢٦، ج:٥، ٧٥٣، ٧٥٤، ج:٧، ١٠٤٧-١٠٥٢.

المصادر والمراجع

- ١- أساس البلاغة، تأليف الإمام الكبير جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفي ٥٣٨ هـ، طبعة جديدة ملونة ومنقحة ومصححة، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ٢٠٠١.
- ٢- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، مج (١، ٩، ١٠)، منشورات دار مكتبة الحياة، المطبعة الخيرية، بيروت - لبنان، (د.ت).
- ٣- تطور الشعر العربي الحديث في العراق، اتجاهات الرؤيا وجماليات النسيج، د. علي عباس علوان، منشورات وزارة الاعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٧٥.
- ٤- تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري:
أ- ج٣: تحقيق د. عبد الحلیم النجار، مراجعة الأستاذ محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب- القاهرة، ١٩٦٦.
ب- ج١٥: تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، دار الكاتب العربي، مطابع سجل العرب- القاهرة، ١٩٦٧.
- ٥- التيار القومي في الشعر العراقي الحديث منذ الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ حتى نكسة حزيران ١٩٦٧، د. ماجد أحمد السامرائي، دار الحرية للطباعة- بغداد، ١٩٨٣.
- ٦- الجواهري شاعر العربية، عبد الكريم الدجيلي، ج١، ساعدت وزارة التربية والتعليم على نشره، مطبعة الآداب في النجف الأشرف، ١٩٧٢.
- ٧- ديوان الجواهري (الأعمال الشعرية الكاملة) ج (١-٧)، ط٣، دار الحرية للطباعة والنشر- بغداد، ٢٠٠٨.
- ٨- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ج٤، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، تم طبعه في شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٥٢.
- ٩- لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور، طبعة جديدة مصححة وملونة أعتنى بتصحيحها أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، ج (١، ٥، ١٤)، ط٣، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت- لبنان، ١٩٨٦.
- ١٠- لغة الشعر الحديث في العراق بين مطلع القرن العشرين والحرب العالمية الثانية، د. عدنان حسين العوادي، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة- بغداد، ١٩٨٥.

- ١١- محمد مهدي الجواهري، دراسات نقدية، أعدها فريق من الكتاب العراقيين، أشرف على إصدارها هادي العلوي، الناشر مكتبة الاندلس- بغداد، مطبعة النعمان- النجف الأشرف، ١٩٦٩.
- ١٢- مختار الصحاح، تأليف محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ١٩٨١.
- ١٣- المرأة في الشعر العراقي الحديث ، أحمد فياض المفرجي ، مطبعة الجامعة – بغداد ، ١٩٥٨.

الرسائل الجامعية :

- ١- رثاء الذات في الشعر العربي إلى نهاية العصر الأموي، دراسة موضوعية فنية، ازدهار عبد الرزاق إبراهيم التميمي، رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب، ١٩٨٩.
- ٢- الرثاء السياسي في العصر العباسي في القرنين الثالث والرابع الهجريين، دراسة في البنية الموضوعية والفنية، محمد عبد الرضا جاسم الخالدي، رسالة دكتوراه، جامعة البصرة، كلية الآداب، ٢٠٠٨.
- ٣- الرثاء في الشعر الجاهلي و صدر الإسلام، بشرى محمد علي الخطيب، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب وهيئة الدراسات العليا، ١٩٧١.
- ٤- الرثاء في شعر العصر العباسي الاول، مظفر عبد الستار غانم، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية الآداب، ١٩٨٤.
- ٥- شعر الجواهري، دراسة موضوعية وفنية، أناهيد ناجي فيصل الشويلي، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية التربية، ٢٠٠٥.
- ٦- لغة الشعر عند الجواهري، علي ناصر غالب، رسالة دكتوراه، جامعة البصرة، كلية الآداب، ١٩٩٥.